

# بلاط الشهداء

# المستشرق برجستريس

(Gotthelf Bergstraesser)

٥ ابريل سنة ١٨٨٦ - ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٣

للدكتور اسرائيل ولفنسون

مدرس اللغة العربية بكلية الآداب

بعد ألف ومائتي عام

— ٨ —

تمتة

وقع نظري أثناء مطالعتي في الجرائد اليومية التي وصلتني من المانيا على خبر لم يوضع في مكان بارز كأنه ليس من الاهمية في شيء، ورد فيه نعي جوتهلغ برجستريس أستاذ اللغات السامية بجامعة ميونيخ، سقط أثناء رحلة رياضية في جبال الالب من قمة جبل جلوكنر الى هاوية توفى فيها على الفور، لو وقع هذا الحادث منذ سنوات قليلة لكان قد وضع في مكان أبرز، وعلى حالة تلفت القراء أكثر مما هو في جرائد هذه الايام، لأن المانيا الحالية ليس فيها من يعابأ كثيرا ممن توفى من العلماء المستشرقين، ولكني روعت لهذا الخبر الذي أدمى قلبي وملاه حزنا وأسى

كان علم الاستشراق قد قطع شوطا بعيدا في أواخر القرن الماضي في جامعات اوربا على العموم، وفي المانيا خاصة حتى وصل يبحث تولدكه وجولدسيهر ويت ويستفاند وليتش وغيرهم الى اوج مجده ثم أخذ بعد انتهاء الحرب العظمى ينحدر من قمة الجبال الى بطون الوهاد ويتضائل شيئا فشيئا

حتى احبط خطط الفتح التي أنفق الوليدوسليمان طويلا في تدبيرها (٥) ونحن مع الفريق الاول نكبر شأن بلاط الشهداء ايما اكبار، ونرى انها كانت أعظم لقاء حاسم بين الاسلام النصرانية، وبين الشرق والغرب، فقى سهول تور وبواتيه فقد العرب سيادة العالم بأسره وتغيرت مصائر العالم القديم كله وارتد تيار الفتح الاسلامي أمام الامم الشمالية كما ارتد قبل ذلك باعوام امام اسوار قسطنطينية واخفقت بذلك آخر محاولة بذاتها الخلافة لافتتاح امم الغرب واخضاع النصرانية لصولة الاسلام، ولم تتح للاسلام المتحد فرصة أخرى لينفذ الى قلب اوربا في مثل كثيرته وعزمه واعتزازه يوم مسيره الى بلاط الشهداء. ولكنه أصيب قبل وبعد بتفريق الكلمة، وبينما شغلت اسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية، اذ قامت فيما وراء البرنيه امبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة تهدد الاسلام في الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ

محمد عبد الله عنان

Agyptine Empire

(٥)

ويقول السير ادوارد كيرزي: « إن النصر العظيم الذي ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٣ وضع حدا حاسما لفتوح العرب في غرب أوروبا، وأنقذ النصرانية من الاسلام، وحفظ بقايا الحضارة القديمة وبذور الحضارة الحديثة، ورد النفوق القديم للأمم الهندية الأوربية على الأمم السامية» (١) ويقول فون شليجل في كلامه عن الاسلام والامبراطورية العربية: « ما كاد العرب يتمون فتح أسبانيا حتى تطلعوا الى فتح غاليا وبورجونيا. ولكن النصر الساحق الذي غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وبواتيه وضع لتقدمهم حدا، وسقط قائدهم عبد الرحمن في الميدان مع زهرة جنده، وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الاسلام الفتاكة الهدامة الى الذروة» (٢) ويقول رانكه: « إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا، وقد وثبت الوثنية كره أخرى الى ما وراء الرين، فنهض إزاء ذلك الخطر قتي من عشيرة جرمانية هو كارل مارتل، وأبد هية النظم النصرانية المشرفة على الفناء بكل ما تفتضيه غريزة البقاء من عزم، ودفعها الى بلاد حديثة» (٣). ويقول زيلر « كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية، وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه لا في غاليا وحدها ولكن في جرمانيا التي أشركها في نصره» (٤): « على أن هنالك فريقا من مؤرخي الغرب لا يذهب الى هذا الحد في تقدير نتائج الموقعة وآثارها ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندي وميشليه. فهما لا يعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل. ويقول جورج فيلي: « ان اثره الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهية من عرب أسبانيا، وصورته كانتصار باهر ونسبت خلاص أوروبا من نير العرب الى شجاعة الفرنج في حين أن حجابا القى على عبقرية ليون الثالث امبراطور (قسطنطينية) وعزمه مع أنه نشأ جنديا يبحث وراء طالعه ولم يكذب يجلس على العرش

- |                             |     |
|-----------------------------|-----|
| Decisive Battles            | (١) |
| Philosophie der Gesoleciete | (٢) |
| History of the Rebornation  | (٣) |
| Hist. de L,Aelmagne         | (٤) |

ويجب أن يلاحظ أن الحرب العالمية قد أدت إلى انحطاط العلم على العموم في أوروبا، لأن التفكير الجدى والقراءة الدقيقة انقطع عنهما الشباب الذى أخذ يميل إلى البحوث السطحية وإلى اكتساب العلم عن طريق الراديو والسينما، كما انتشر في الجامعات توغل جمهرة الطلبة فى الشؤون السياسية والحزبية أكثر من توغلهم فى البحوث العلمية

وقد توفى من خيرة الاساتذة المستشرقين ( جولدسيهر ونولدكه شيجلبرج وييجر وهورديتس ) دون أن يأتى غيرهم فيملاً الفراغ الذى تركوه فى شتى العلوم التى كانوا يضحون حياتهم فى سبيلها . واما الآن فوجد عددا غير قليل من الاساتذة يملاً ون أروقة الجامعات فى ألمانيا وهم من الذين يناصرون الحزب الذى يقبض الآن على ناصية الحكم فى البلاد . . . هذه الافكار أخذت تعلق بالى فى تلك اللحظات التى قرأت فى الجرائد الألمانية عن وفاة العالم برجستريسرس نشأ الأستاذ برجستريسرس فى أسرة ألمانية مسيحية بروتستانتية وكان ابوه وجده قسيسين فى مدينة بلون Plauen من أعمال زكسن Sachsen بألمانية ، ومن هنا يسهل فهم سبب عناية والديه بتربيته الدينية فى المدرسة الابتدائية والثانوية ، إذ أرادا أن يحققوا أمنيتهما حتى يكبر تقياً ويصبح صالحاً لرداء الكهوت ويكون خير خلف لخير سلف ، ولكن اجوتهلطف برجستريسرس مال عن هذه الرغبة إلى البحث فى اللغات السامية والعلوم الاسلامية حين دخل فى جامعة ليزبج Leipzig فى سنة ١٩٠٤ وقد درس آداب اللغة العربية عند العالم أوجست فيشر الذى يعتبر إلى يومنا الحالى من قادة النقاد لدى جمهرة المستشرقين ، وقد أثرت روح النقد فى برجستريسرس حتى أضحت على كمر الزمن من عجزاته البارزة لا فى الكتابة والقراءة المحاضرات فحسب ، بل اثناء محادثاته العادية مع محدثيه كانت لانتقوته كبيرة أو صغيرة دون أن يتعرض لها اذا وجد مجالاً للمعارضة أو الانتقاد

ونذكر بهذه المناسبة ان فيشر — شيخ النقاد — كان على الدوام يتقدم بكل شدة مؤلفات المستشرقين حتى هابه عظماء العلماء فى العصر الحاضر ، على ان فيشر لم يؤلف المؤلفات الكبيرة كما فعل العلماء الذين انتقد مصنفاتهم بل كان يكتفى بوضع المقالات ، وأخذ بعض العلماء بهزأون به ويقولون ان فيشر لا يحب أن ينشر كتباً خوفاً من شح النقد وانتقام النقاد ، ومن اكبر عيوب أوجست فيشر انه بدأ بدون جملة كتب فى موضوعات شتى منذ سنين كثيرة ولم ينته منها ، إذ من المعلوم انه يعمل منذ ثلاثين سنة فى

تأليف قاموس عربى علمى دقيق للشعر العربى القديم لم يطبع الى الآن ، وكذلك بدأ فى مراجعة جملة مخطوطات لكتاب المغازى للواقدى منذ امد بعيد وإلى الآن لم ينته منه أيضاً . وكان كاتب هذه السطور قد التقى بالأستاذ فيشر فى مدينة فينا فى مؤتمر المستشرقين فى سنة ١٩٣٠ فعرض عليه أن يتم مراجعة بقية الأجزاء من كتاب المغازى للواقدى ، فلما سمع فيشر اقتراحه بدا اضطراب على وجهه وسكت طويلاً كأنه لم يتمكن من أن يروح بكلمة ، ثم أجاب بعد تفكير طويل : أهملنى حتى أفكر ملياً فى هل أكمل الكتاب أم أقدمه اليك مع جميع المخطوطات والصفحات التى بدأت بمراجعتها . . . فلما قصصت حكاية المقابلة مع فيشر للأستاذ برجستريسرس ابتم باسمته الحلوة قال : فيشر لن يرسل اليك الصفحات التى راجعها أبداً كما لن يخبر أنه عزم على أن لا يتم الكتاب . .

على أن فيشر كان قد درب فى جامعة ليزبج تحت إشرافه عدداً لا يستهان به من العلماء حتى أصبحوا من فحول المستشرقين فيما بعد ، وكان بينهم الأستاذ جوتهلطف برجستريسرس . وبعد أن أتم برجستريسرس دراسته الجامعية وقدم رسالة عن حروف النفى وأسماء الاستفهام فى القرآن الكريم فى سنة ١٩١١ قام برحلة إلى الأقطار الشرقية فى سنة ١٩١٣ فزار الأناضول وسورية وفلسطين ومصر وما كاد يصل إلى ألمانيا من هذه الرحلة المباركة حتى بدأت الحرب العظمى فدعى إلى ساحة القتال ، وظل متنقلاً مع الجيش الألماني فى أرض بلجيكا وفرنسا إلى أن دعتة الحكومة التركية فى سنة ١٩١٥ لالقاء محاضرات فى جامعة الأستانة ، وكان أول عهده بلقب أستاذ ، وقد بلغ حينئذ العام الثلاثين من حياته ، ولما ذاع صيته دعى لالقاء محاضرات فى جامعات ألمانيا فى العلوم الاسلامية واللغات السامية كانت أولها جامعة كونسبرج فى سنة ١٩١٩ وفى عام ١٩٢٢ انتقل إلى جامعة برسلو ومنها إلى جامعة هيدلبرج فى سنة ١٩٢٤ ثم دعى إلى مدينة ميونيخ . سنة ١٩٢٦ التى ظل يدرس بها إلى أن أدرسته المنية .

\*\*\*

تنقسم مؤلفات برجستريسرس إلى أربعة أنواع أصلية نوع يشتمل كتبه عن اللغة العربية وعلم اللغات السامية ، ونوع آخر يبحث فى الأرامية ولهجاتها ، ونوع ثالث يحتوى على مصنفاته ومطبوعاته فى الآداب العربية والعلوم الاسلامية ، وأما النوع الرابع فيشتمل مقالاته عن علوم اللغة التركية .

على العموم تمتاز كتابة برجستريسرس بدقة الجمل القليلة فى ألفاظها ، الكثيرة فى معناها ، يعبر عما يجول فى خاطره بعد تفكير

طويل، وبعد احاطة بالموضوع من جميع نواحيه، والممام شاق بجمع  
المراجع الكبيرة والصغيرة مع استعمال الأدلة العلمية الدقيقة، مما  
يجعل القارئ يحتاج الى قراءة الكتاب بأناة حتى يقف على  
النظريات الغزيرة

ومن أهم ما دون برجستريس في حياته: كتابه عن قواعد اللغة  
العبرية، ومما لا شك عندها أنه اخطر كتاب في موضوعه منذ بدأ البحث  
في علوم الامم الشرقية على الطريقة العلمية المألوفة عند الافرنج، وقد  
أظهر المؤلف في هذا المصنف أنه وقف على جميع النظريات التي  
الفت في هذه المادة في جميع العصور بين كتب ومقالات معروفة  
ومهجورة، وهذا المام بندران يوجد بين علماء اليهود أنفسهم  
ومع أن كتابه هذا وضع لجمهرة الطلبة في الجامعات فإنه لم  
يستعمل كثيراً بين هؤلاء لأنهم لم يتمكنوا من فهمه وادراكه حتى  
الادراك، لذلك أصبح كتاباً للأساتذة والمدرسين في المعاهد العليا كما  
هو شأن جميع كتب برجستريس التي انحصرت تداولها بين أيدي الذين  
نضجت عقولهم وتمرنوا على مطالعة الموضوعات العويصة والكتب  
الغنية الدقيقة

وله كتاب آخر سمي المدخل الى اللغات السامية

[ Einführung in die semitischen Sprachen ]

ويجب أن يلاحظ أنه بعد أن نشر مصنف نولدكه عن اللغات  
السامية، وكتاب بروكلمان الكبير عن الموازنة بين قواعد اللغات  
السامية جاء برجستريس واطاف كتاباً جديداً في هذه المادة، وكان  
الناس يتوقعون أنه لا يأتي بجديد، ولكن ظهور الكتاب ازال كل  
اثر لتلك المخاوف، اذ جاء جديداً في أسلوبه، فباضاً في نظرياته،  
ثائراً على القديم، يلقي أحكامه الجديدة ويهدم قضايا مألوفة  
ومعروفة

وله كذلك كتاب في جغرافية اللغة في سورية وفلسطين

( Sprachatlas fuer Syrien und Palaestina )

وضعه لاغراض عملية لرجال الجيش الالماني في البلدان العربية  
أثناء الحرب العظمى

وقد ذكرنا رحلة الاستاذ برجستريس الى البلدان الشرقية، وكان  
قد أقام مدة من الزمن في دمشق بحث فيها بحثاً علمياً دقيقاً عن اللهجة  
العامية في دمشق، كما وجه عناية شديدة الى البقية الباقية من الارهاط  
السريانية التي تقطن في المعلولة وهي صاحبة من ضواحي دمشق.  
وصنف رسالتين احدهما عن اللهجة السريانية عند اهل معلولة

والأخرى عن الروايات الخرافية الجديدة عند الأراميين

على أن الاستاذ برجستريس وجه جل عنايته الى البحث في العلوم  
الاسلامية والعربية، وكانت با كورة مصنفاته في هذه المواد رسالته  
عن حنين بن اسحق ومدرسته، ومما لا شك فيه أن الذين يكتبون  
عن الفلسفة اليونانية وأثرها في الفلسفة الاسلامية وعن حركة الترجمة  
والنقل من اليونانية الى العربية بواسطة السريان، يجدون في هذا السفر  
مادة غزيرة لا يمكنهم أن يستغنوا عنها مطلقاً . . .

وله كتاب آخر وهو عظيم الخاطر في العلوم الاسلامية اعني به  
ما كتبه عن مصاحف القرآن الكريم. كان الاستاذ نولدكه قد الف في  
أواسط النصف الثاني من القرن التاسع عشر كتاباً عن تاريخ  
القرآن كان له الدوى العظيم والأثر البعيد في أندية العلماء في أوربا،  
ولما احتاج الكتاب الى تنقيح وزيادات وكان الاستاذ نولدكه قد  
توغل في بحوث اخرى تناوله الاستاذ شوللي Sewally واخرج  
الطبعة الثانية من كتاب تاريخ القرآن الكريم مع زيادات  
وملاحظات كثيرة، ولم يكن الكتاب كل بعد، لذلك تم برجستريس  
ما بدأ به نولدكه وشوللي فدون الجزء الثالث من تاريخ القرآن  
الكريم وهو كتابه عن المصاحف، وقد رأى الاستاذ برجستريس  
أن يبحث في قراءات القرآن وهي مادة لم يكن ليشتغل فيها غيره  
من كبار المستشرقين، فقضى سنين طويلة يراجع بصبر وناة كل  
مادون في امهات المصنفات الاسلامية في هذه المادة من كتب  
مطبوعة ومخطوطة، وكانت نتيجة هذه الأبحاث الطويلة أنه طبع (١)  
كتاب غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين ابى الخير محمد  
الجزري المتوفى سنة ٨٣٢ هـ (٢) كتاب شواذ القراءات  
لابن خالويه (٣) رسالة باللغة الالمانية عن القراءات القرآنية  
الشاذة في كتاب المحتسب لابن جني

Nichtkanische Kran les arten im Muhtasab des Ibn  
Ginni

وهو آخر مصنف وضعه الاستاذ برجستريس في حياته، ومما يلفت

الانظار أن هذا الكتاب مقدم الى الدكتور طه حسين  
ويجب ألا يغيب عن البال ان الاستاذ برجستريس قد أتقن ماعدا  
اللغات السامية: الفارسية والتركية ايضاً، وقد وضع جملة مقالات عن  
آداب هاتين اللغتين نشرت في مجلات المستشرقين في مناسبات شتى

\*\*\*

كان الاستاذ أنوليمان ( E. Littmann ) المستشرق الشهير  
صاحب المدونات عن الكتابات العربية قبل الاسلام، المعروفة  
بالخطوط الشمودية واللحيانية والصفوية (راجع كتاب تاريخ اللغات  
السامية لكاتب هذه السطور ص ١٧٥-١٨٨) بعد أن التقى محاضرات

في الجامعة المصرية في السنة الدراسية ١٩٢٨ - ١٩٢٩ ولم يستطع الرجوع الى الجامعة بعد ذلك الحين أشار على الهيئات الرسمية بالجامعة المصرية بان يدعو الأستاذ برجستريسر لاقاء محاضرات في الجامعة المصرية وقد قوبل الاقتراح ولبي الأستاذ برجستريسر دعوة الجامعة وحضر الى القطر المصري وكان محبباً برجستريسر حادثاً خطيراً في حياة الجامعة المصرية اذ كان الاساتذة والمدرسون يقبلون عليه ويحضرون مع الطلاب محاضراته النفيسة ، وكان يلقي في ذلك العام (١٩٣٠) محاضرات عن التطور النحوي للغة العربية . وكان في محاضراته الأولى كثير العجمة والابهام في لغته العربية، وكان يقرأ المحاضرة من الورقة المكتوبة التي كانت أمامه، ثم أخذ بعد جملة أسابيع يتحرر شيئاً فشيئاً من الكراس، وأخذ يرتجل الجمل ارتجالاً ويفصح في الكلام افصاحاً، ثم رجع في سنة ١٩٣٢ الى مصر والقى محاضراته عن اللهجات العامية في الموصل . كان يفيض كالبحر الزاخر بلغة عربية فصيحة كانت مفهومة واضحة لجمهور الطلبة

كان الأستاذ برجستريسر يسرف في اجتهاد نفسه حتى أضناه العمل لانه كان فوق البحث والنحص لتنظيم محاضراته لطلبة الجامعة المصرية ، مضى ثلاثة أيام كاملة من الصباح الى الغروب في المكتبة الملكية يجلس الى مائدة في غرفة منفردة ويراجع مخطوطات في قراءات القرآن، ثم اضطر الى ملازمة الفراش، فعنفه الاطباء على اجتهاده المفرط الذي ينذر بالخطر وأشاروا عليه بتترك العمل في المطالعة والتأليف ولكنه لم يحفل بهم

وكان برجستريسر يحب الجبال ، والرياضة في الجبال، ينزه أسبوعاً كاملة على خلة بنفسه ، وفي اليوم الثاني عشر من شهر اغسطس المنصرم صعد جبل جلوكرز الشامخ فحدثت الفجيرة العظمى اذ زلت قدماء من ذروة الجبل الشاهق وسقط الى هاوية فتوفي على الاثر

وكان قد بلغ الثامنة والاربعين من عمره حين قضى نحبه؟

## مصنع الدوبار والاحبال يورد للقطر المصري حاجاته

من دوبار وأحبال صنعت من كتان مصرى زرع في أرض مصرية  
غزل بأيدي عمال مصريين على ماكينات ميكانيكية حديثة  
بأسعار لا تراحم مطلقاً

أطلبوا أسعار الجملة والقطاعي

شركة مصر لغزل ونسج القطن

بالمحلة الكبرى

هذه هي خطوة جديدة تخطوها شركتنا فسيروا معنا - تقدم بكم دائماً الى الامام

ويجب ان يقال بكل صراحة ان عدد الحاضرين عند برجستريسر كان في بادىء الامر كبيراً، ثم أخذ ينقص على كثر الزمان الى ان انحصر الحاضرون في طلبة قسم اللغات السامية فقط ، والسبب في ذلك يرجع الى أن محاضرات برجستريسر كانت فنية قبل كل شيء. أى إن الذين لم يدرسوا اللغات السامية لم يفهموا كثيراً ما كان يلقي الأستاذ، وفوق ذلك فان عقلية برجستريسر كانت دقيقة وعميقة وكانت محاضراته موجهة الى أصحاب الثقافة الراقية قبل كل شيء.

لم يكن برجستريسر أكبر الاساتذة سناً، ولكنه كان أعلاهم مقاماً وأغزهم علماً وكانوا يوجهون اليه الأسئلة حتى يقفوا على آرائه في كثير من الموضوعات ومن هنا ادخل برجستريسر في هيئة التحرير في المجلة العلمية الشهيرة في ادبيات المستشرقين وكان Orientalistische Literaturzeitung مدة من الزمن رئيس التحرير في المجلة الألمانية للعلوم السامية

Philologie und Linguistik  
Beiträge zur sem.